مجلة اللغة العربية وآدابها
السنة ١١، العدد ٤، شتاء ١٤٣٧ هـ
صفحة ٦٣٥ – ٦٥٣

الطبيعة عند شعراء الرابطة القلمية
(جبران خليل جبران أنموذجا)

صادق فتحي دهكردي[١]*، ميثم إيراني[٢]

١. أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، فرديس فارابي
٢. طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، فرديس فارابي

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/١١/١٤ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٦/٢/٢)

الملخّص

تناول شعراء المهجر وبالتحديد شعراء الرابطة القلمية مواضيع عدة منها الإنسان، الاجتماع، السياسة، وغيرها من الموضوعات، ولكن كان للطبيعة دور مهم في مؤلفاتهم، فتناولوا الطبيعة تارة كونها ظاهرة جميلة خلّابة تستحق الوصف، وذكروها تارة أخرى لتقريب المعنى المراد توصيله إلى المتلقي، ونلاحظ أحيانا تناقضات في ما ذكره هؤلاء الأدباء، ولكون الطبيعة لها مكانة لا يستهان بها في أدب هذه الثلة فيجب دراستها وتحليل زواياها وصولا إلى مبتغي الأديب مِن ذكرها. جبران الذي له مكانة خاصة في الأدب العربي، تميّز بأمور كثيرة، فهو الأب الروحي لكثير من أدباء المهجر، وحياته الخاصة والعاطفية كوّنت منه شخصية مميزة، كما أن الطبيعة عنده لها طابع فلسفي وفني مختلف. كان جبران رسّاما ومصوّرا وتأثّر بكبار الفلاسفة الأوربيين كما وتنقّل كثيرا من مدينة لأخرى، هذا ما جعله يتعايش مع مجتمعات مختلفة أثّرت على سلوكه وأخلاقياته وبالتالي على أدبه الذي للطبيعة فيه مكانة مرموقة. تناول هذا المقال بحث الطبيعة عند جبران من زوايا ورؤى مختلفة، وحاول أن يضع النقاط على كثير من الحروف الكامنة في أدب الطبيعة عند جبران الذي حاول أن يرسم أجمل اللوحات بكلمات اللغة إلا أننا نجد عنده تناقضات في رؤيته تجاه الطبيعة حيث يبتعد عنها ويخالفها عندما تتعارض مع أفكاره الشخصية ويعارض الأمور التي تنسجم والطبيعة الإنسانية والفطرية، ومن أهم النتائج التي توصلنا إليها هي أن استخدام جبران لعناصر الطبيعة كانت لأسباب عدة منها: شد المتلقي إلى نصوصه عبر جمالية المكان وأيضا تأثير الأفكار الفلسفية على أدبه والتي دعته للتمرد على الحياة المادية وبالتالي التوجه نحو الطبيعة. والمنهج المتبع في البحث هو المنهج الوصفي- التحليلي الذي يقوم على ذكر نماذج شعرية ثم تحليلها.

الكلمات الرئيسة

جبران خليل جبران، الطبيعة، الأدب، التناقضات.

---

* الكاتب المسؤول
Email: s.fathi.d@ut.ac.ir

مقدمة

شهدت بلاد الشام ـ المتشكلة من سوريا ولبنان والأردن وفلسطين الحالية ـ أصعب أيامها في نهايات القرن التاسع عشر للميلاد، وبدايات القرن العشرين. تهجير وظلم وقسوة واضطهاد وجوع وسوء الأوضاع الاقتصادية وضيق الأرزاق مما اضطر الكثيرين من المواطنين إلى الهجرة لبلاد غير التي ينتمون إليها. فاختار الكثيرون من هؤلاء المهاجرين أراضي القارة الأمريكية ملاذا لهم، وكان من بين هؤلاء المواطنين فنانون وأدباء وسياسيون وغيرهم من شرائح المجتمع السوري واللبناني، وقد اضطروا إلى التعايش مع المجتمع الجديد رغم اختلاف الثقافات واللغة والتاريخ والفكر ورغم عدم وجود شيء يربطهم بهذا المجتمع الجديد، وهذا كما يقول المتنبي واصفا شعب بوان:

مغـــاني الشـــعب طيبـــا في المغـــاني	بمنزلـــــة الربيـــــع مـــــن الزمـــــان
ولكـــــن الفـــــتى العـــــربي فيهـــــا	غريـــــب الوجـــــه واليـــــد واللســـــان

(المتنبي، ١٩٨٣: ٥٤١)

وبما أن الأدباء كانوا ضمن هذه المجموعات المهاجرةفهم حاولوا أن يتعايشوا مع الظروف الجديدةفتمثل تعايشهم في تأسيس نشرات ومؤسسات ورابطات أدبية، والتي من أشهرها كانت الرابطة القلمية التي أسسها الأدباء الذين سكنوا أمريكا الشمالية.

وكان من أشهر أعضاء الرابطة القلمية جبران خليل جبران، ميخائيل نعيمة، إيليا أبو ماضي، رشيد أيوب، نسيب عريضة، ندرة حداد، وكل من هؤلاء حاول أن يثور بأدبه على الأدب التقليدي ويظهر فيه نزعته الإنسانية، كما وجددوا في الأوزان والموسيقى والألفاظ، وتناولوا في أدبهم شتى الموضوعات من الغزل والرثاء والسرد وغيره. ولكن في ثنايا أدبهم استخدموا وسائل لتقريب الصورة للقارئ، وأحيانا كانت الوسيلة تلك هي الهدف، فالحياة والدين والسياسة والموعظة والحرية والتجديد والطبيعة كانت من أهم ما تناوله أدب هؤلاء الثلة التي قلما يعرف الأدب العربي الحديث من أمثالهم.

وبعد أن هاجر عدد من أبناء العالم العربي ـ خاصة من لبنان ـ إلى الأمريكتين، شاهدوا عالما يختلف كل الاختلاف عن عالمهم في المشرق. كان هذا العالم الجديد عالما ماديا بحتا تحكمت فيه الآلة وساده الانحلال، وعكر صفو الحياة فيه ضجيج الآلات، إضافة إلى جوّه

ومياهه الملوثة. ما شاهدوه في المجتمع الجديدسبب صدمة لهذه الثلةفحنوا إلى قرى الشرق الجميلة وهوائها النقي والطاهر وروحانيتها المعنوية وحياتها القائمة على الحب والوئام والتسامح. ومن جانب آخر تعزز عند هؤلاء المهاجرين العرب شعورهم بعروبتهم رغم كل مظاهر الحياة المختلفة، وشعروا بأن عروبتهم مهددة بالانهيار والاندثار فلذا سارع عدد منهم إلى إنشاء المجلات الأدبية والصحف لتكون صوتهم.

وخلال هذه النقلة الصعبة من الناحية الفكرية والثقافية والإنسانية، اقترح أحدهم وجود رابطة تضم قواهم وتوحد مساعيهم من أجل اللغة العربية وآدابها ولذا قرروا تحقيق هذه الفكرة فأسس جبران خليل جبران وزملاؤه في المهجر، الرابطة القلمية ـ والتي كان هدفها الاهتمام بالأدباء المهجريين ـ لتعزيز الإحساس بالعروبة في الغربة ولأجل الحفاظ على الإبداعات الأدبية للكتاب العرب أينما كانوا. وكانت من واجبات هذه الرابطةتبني نشر النتاجات الأدبية في المهجر (أبو عيد، ٢٠٠٥: ٨).

يعتبر جبران من مؤسسي هذه الرابطة حيث جعلها منبرا للأدب العربي، وكان حقا أديب المهجر الأكبر، وظل عضوا بارزا فيها حتى وفاته.

ففي بحثنا هذا أخذنا جبران خليل جبران كنموذج ـ كونه من أشهر أدباء المهجر ـ وحاولنا تسليط الضوء على تناوله للطبيعة، زواياها وفوائدها وهدفها وطريقة ذكره لها، بهدف تبيين أسباب استخدام الطبيعة عنده. وكما ذكرنا آنفا أن وصف الطبيعة يعد من أهم الأغراض التي تناوله شعراء المهجر وذهب إليها الشعراء في العصر الحديث بقوة، لتكون إحدى أهم المواضيع المذكورة عندهم، فلذا قلَّما يوجد شاعر معاصر لم يتناول هذا الغرض بالتحديد دون غيره. حيث نجد من لم يذكر الدين أو السياسة أو الموعظة أو الإصلاح في شعره، ولكننا لا نجد من لم يتناول الطبيعة بتاتا، سواء كان ذكرها مجرد وصف بسيط أم كان يحمل في طياته رموزا وتشابيه وكلاما لم يستطع الشاعر أن يذكره دون الاستعانة بالطبيعة.

أسئلة البحث:

١. ما هو دور الطبيعة في الأدب المهجري؟
٢. إلى أي حد مال جبران إلى الطبيعة؟
٣. كيف تناول جبران الطبيعة؟
٤. ماهي عناصر الطبيعة واستخدامها عند جبران؟

فرضيات البحث:

١. الأدب المهجري تناول الطبيعة بشكل مفرط أحيانا واستخدمه لأسباب عدة بعضها ليس له علاقة بالطبيعة نفسها، بل لتحفيز القارئ على متابعة النص الأدبي مثلا.
٢. نظرا لما راجعناه من مصادر مختلفة وقرأناه عند جبران من قصص وأشعار، نجد لجبران ميلا للطبيعة أكثر من المألوف.
٣. ذكر جبران الطبيعة في مجالات عدة، تارة لتجيمل نصه وشدّ المخاطب وتارة لبيان أفكاره، وفي كل مرة استخدم عناصر الطبيعة لهدف دون آخر.
٤. فاستخدم كثيرا من العناصر الطبيعية من جبال ووديان وأشجار وسماء وقمر وغيرها من العناصر المشهورة للوصول إلى غايته المنشودة.

خلفية البحث:

قبل البدء في هذا الموضوع راجعنا عددا لا بأس به من المجلات الأدبية المحكمة ـ الأهلية والحكومية ـ ومنها التي تنشر من قبل الجامعات المعتبرة، كمجلة الأدب العربي ومجلة العلوم الإنسانية الدولية ومجلة بحوث في اللغة العربية وآدابها، وعشرات المجلات الأخرى، إضافة إلى ما نشر في المؤتمرات العلمية والأدبية، للوصول إلى الإجابة عن هذه الأسئلة. ولكننا بعد البحث والتدقيق لم نجد بحثا أو مقالا أو محاضرة قد تناولت هذا الموضوع وبالتحديد من الزوايا التي ذكرناها، فلذا حاولنا أن نجيب على الأسئلة المطروحة في بحثنا هذا، وصولا إلى الأهداف التي دعت الشاعر والأديب إلى الخوض في بحور الطبيعة الملتوية، والتي لا يستطيع أن يعبر من أمواجها إلا من كان يجيد العَوْم بين طيات الحروف والكلمات بشكل جيد.

الحياة الشخصية والأدبية لجبران

لكي نستطيع أن نتعرف على الطبيعة عند جبران بشكل أفضل، ونستخرج عناصرها للوصول إلى الغايات التي كان جبران ينوي التوصل إليها، علينا أن نبدأ بعلاقة الطبيعة وجبران منذ نشأته وولادته، كي نتوصّلالى ما يربطهما ببعضهما. لذا نبدأ بولادة جبران لنستمر في الأماكن التي مر بها أو عاش فيها، والأمور التي جلبت انتباهه، والأشخاص الذين تأثر بهم، وهكذا سنتعرف على ما نبغي الوصول إليه في بحثنا هذا.

ولد جبران سنة ١٨٨٣ في بلدة بشري شمالي لبنان، سافرت والدته كاملة رحمة سنة ١٨٩٥ برفقة أولادها إلى بوسطن وهو في الثاني عشر من عمره، وتعلم فن التصوير هناك،

ثم رجع إلى بيروت ودخل مدرسة الحكمة وبقي أربع سنوات، ثم سافر إلى باريس وهو شاب لا يتجاوز عمره الخمسة والعشرين، ومكث هناك ثلاث سنوات اتصل فيها بمعاهد الرسم والتصوير وزار بروكسل ولندن وغيرها من عواصم الحضارة والفن.

كان جبران ناعما يسيل كنبع عذب، موسيقى شعره ساحرة وألوانه الرائعة تبهر العيون وألفاظه جميلة جزلة، وحقا ما قيل فيه بأنه زعيم أدب المهاجر، وهو أول من سلك هذا الأسلوب السحري المبلور في الأدب العربي.

وفي صباح يوم الجمعة، العاشر من نيسان سنة ١٩٣١ قضى على جبران داء السل، في مستشفى سنت فينسنت بمدينة نيو يورك. شيع جثمانه جمع غفير من العرب والأجانب، وباحترام أرسل به إلى بلدته التي طالما حن إليها، ليدفن هناك (جبران، ١٣٧٩: ١٦)، بعد حياة ملئية بالتجارب والأفكار والعقائد المختلفة. ذكر البعض بأنها مليئة بالكفر والإلحاد والاندفاع، وقال آخرون، بأنها زاهرة بالحب والجمال والصفاء (الفاخوري، ١٤٣٣: ١٠٩٤).

كان "وليم بليك" الإنجليزي، شاعرا وفنانا رحب الخيال، كثير التأمل والتفكير، حتى أوجد لنفسه سماءً خاصة من الفن والخيال ليحلق فيها دائما. وكان من البديهي أن يأتي شعره عبارة عن تأملات شخصية وتعبيرات نفسية.

لقد تأثر جبران بروح وليم وفنه كثيرا، وإذا لاحظنا مدى هذا التأثر نستطيع أن نفسّر عناية جبران بالنفس والروح. ومن جبران سرت العناية بالعنصر الروحي إلى جميع أفراد الرابطة القلمية. أعجب جبران بوليم كثيرا، وخاصة بقوة خياله وسعة تفكيره، كما وأعجب بتمرده على القوانين الصارمة والعادات القديمة وتلك الثورة على العبودية الشخصية (السراج، ١٩٨٩: ١١٣-١١٤).

لم يكن "وليم بليك" هو الوحيد الذي تأثر جبران وزملاؤه به، بل وكان للأدب الأمريكي أيضا دور مهم في ما كتبه شعراء المهجر، ومن زعماء هذا الأدب كان "إمرسن" زعيم مبدأ التسامي ـ الذي هو كما يرى علماء النفس بأنه الارتقاء والتعالي بنزعات الفرد العدوانية إلى اتجاه نافع ومفيد وصولا لنوع من التوافق الذاتي (الأمارة، ٢٠٠٧) ـ وكان أصحاب هذه المدرسة يتأملون في الطبيعة كثيراومن الذين اتبعوا هذا النهج وتأثر جبران بهم كان: "وتيير" و"لو نجفلو". وفضلا عن هذا بدأ جبران يتأثر بتلك الروح الابتداعية العامة التي سرت في الغرب وعرفت باسم "الرومانسية" (السراج، ١٩٨٩: ١١٥).

إن الحياة القاسية التي عاشها جبران في المهجر والعالم الجديد بمدنيته الطاغية والفاسدة، وغالبية سكانه الذين لا تهمهم الأمور الروحية بقدر تكالبهم في الحصول على المال والمادة، لم تعاونه ولم تنصره، فالتفت إلى الوراء حائرا مترددا بين أن يواصل السير في هذه الحياة البغيضة، أو يعود من حيث أتى، إلى تلك الربوع الحانية الوادعة (السراج، ١٩٨٩: ١١٧). فأثرت كل هذه الأمور على جبران كثيرا، كانت تأثيراتها واضحة الملامح في شخصيته وكتاباته أيضا، وانعكست بأشكال مختلفة على أدبه، وكانت الطبيعة هي من أهم المرايا التي عكست هذا التأثر بشكل جيد.

كل ما ذُكر كوّن شخصية فلسفية مميزة لدى جبران، وتكونت لديه آراء فلسفية خاصة جمع بعضها مما أعجب به من التأثيرات الخارجية التي ذكرناها، واكتسب أيضا من طبيعة المكان والحياة وعرض جميعها عرضا أدبيا جذابا، تميزت بعذوبة النغم وسلامة العبارات ورشاقة الألفاظ وسهولتها، وبساطة التعابير وصدق العواطف وجمال التصوير (ابو عيد، ٢٠٠٥: ٩-١٠).

الطبيعة ودورها في أدب جبران

إن الطبيعة الأولى التي واجهها جبران كانت بلدته بشري، والتي تتمتع بأجمل المناظر الخلابة كغيرها من البلدات والقرى الواقعة في الأرز اللبناني، مناظر لا ينساها من رآها ولو لمرة واحدة، من جبال شامخة وغابات رائعة وعيون ماء صافية، أجواء ساحرة بموسيقى الطيور التي تحلق في أرجاء المكان وتغرد بأجمل الألحان.

وكان جبران ـ كغيره من الأطفال في عمره ـ يلعب ويرتع في بساتين الورود العطرة، وكان يقطف بعض الزهور ليهديها إلى من أحبهم من زملائه في المدرسة. كان بين الفينة والأخرى يذهب إلى الكهوف الموجودة في حواشي بشري، ليجلس هناك بمفرده ويستمتع بجمال البحر من الأعلى. كان جبران يحب صوت الناي الذي يعزف عليه الرعاة، ليذهب بصوته إلى عالم خيالي ومثالي. عندما كان يجلس على صخرة في أعالي وادي "قاديشا" ويعوم في بحر أفكاره، لما كان يظن بأنه بعد سنوات قليلة عليه أن يترك كل ما يراه، ليذهب إلى عالم لا يرى فيه سوى الحديد والإسمنت، ولا يسمع فيه سوى ضجيج المصانع والآلات (جبران، ١٣٧٩: ١٤).

وبعد الابتعاد عن بلدته غصبا وحتى بعد أن أصبح مستقلا بنفسه، لم يختر جبران أي منطقة تتمتع بطبيعة كالتي عاش فيها طفولته. فأي من بوسطن ونيويورك وباريس ولندن،

هي مدن مادية بحتة، وإن كان فيها جزء يسير من الطبيعة، ولكنها لن تصل إلى حد الوصف، كما والطبيعة فيها لم تكن خلابة وطاهرة كالتي نقرؤها في أدب جبران. وحتى بيروت التي سكنها مدة من الزمن، فهي رغم جمال البحر فيها في الرملة البيضاء وصخرة الروشة، لكنها أيضا تعتبر من المدن المادية التي سياحتها ليست سياحة طبيعية بحتة كغيرها من المدن والقرى اللبنانية. السائح الذي يقصد لبنان عليه أن يخرج من بيروت ليذهب إلى مناطق كحريصا وجعيتا وفاريا وغيرها من المدن والمناطق التي تتسم بجمال الطبيعة.

كان جبران خليل جبران رساما ومصورا وفنانا متألقا، والطبيعة هي دائما أفضل موضوع للاختيار، فلا يوجد مصوِّر لم يلتقط صورا من الطبيعة لتكون من أجمل صوره، ولا يوجد رسَّام لم يرسم لوحة للطبيعة، ليتبناها بجمالها ودقة تفاصيلها وألوانها التي تعطي حياة للوحته الجامدة. وكان جبران أحد هؤلاء، ولكنه رسم بريشته أحيانا وبكلماته أحايين أخرى، كما وصور بعدسته تارة وبحروف اللغة تارة أخرى.

استخدم جبران الطبيعة لبيان جمالية المكان، ولأخذ المتلقي إلى عالم بعيد عن العالم المادي الذي نعيش وإياه فيه، كما يقول: «سار خببا على ممر تظلله أشجار الصفصاف وتتمايل على جانبيه الأعشاب والدوالي المتعرشة وأزهار نيسان المبتسمة... حديقة مترامية الأطراف، تتعانق في جوانبها الأغصان وتعطر فضاءها رائحة الورود والفل والياسمين» (جبران، ٢٠٠٣: ٣٩). وهكذا يشد جبران القارئ كي يقترب منه ليضخ إليه أفكاره واعتقاداته. استطاع جبران بخياله الخصب ومقدرته الفذة أن يستنطق الجمال والحب بلسان الطبيعة بروح شرقية (أبو عيد، ٢٠٠٥: ٧).

واعتبر جبران خليل جبران الطبيعة، ملهمة لدروس الحياة والحب والإخلاص، كما ورأى فيها قدوة للإنسان، وقال: «أرى في يقظة الطبيعة رمز الخلود» (جبران، ٢٠٠٣: ٧٢). يعد جبران الطبيعة ملجأ رئيسا ومهما للإنسان اليائس والمتعب والمكتئب، فرارا من أذى الناس (السراج، ١٩٨٩: ٩٩). وهي الإنسان الطيب والمثالي، وهي أنموذج واضح للخير، وتستحق أن يقتدي الإنسان بها (جبران، ٢٠٠٣: ١٨).

فعندما يئس بطل الأجنحة المتكسرة من الحياة وتأذى كثيرا من ظلم الذين كانوا حوله، قرر أن يبتعد عن الحياة ولم يجد أمامه سوى الطبيعة كي يلجأ إليها، لذا يقول: «عند الظهيرة سيقودني إلى ظل الأشجار فأربض مع العصافير المحتمية من حرارة الشمس ...

وفي الربيع سأمشي والحب جنبا لجنب، مترنمين بين التلول والمنحدرات متبعين آثار أقدام الحياة المخططة بالبنفسج والزنبق» (جبران، ٢٠٠٣: ٨٣). فلم يفكر البطل بتاتا إلا بالطبيعة كي يلجأ إليها، وكأنما هي مأواه الوحيد.

فالطبيعة عند جبران ماهي إلا حياة بعيدة عن السياسة والمشاكل والصراعات لذا نقرأ في "لكم لبنانكم ولي لبناني" يقول: «لبنانكم مشكلة دولية تتقاذفها الليالي، أما لبناني فأودية هادئة سحرية تتموج في جنباتها رنات الأجراس وأغاني السواقي» (جبران، ٢٠٠٠: ٧٤).

يحاول جبران دائما أن يتعلم دروس الحياة من الطبيعة ويجلها كقدوة له في مسيره فلذا يروي بعض الدروس التي تعلمها منها ويقول: «علمتني أن لا أطرب لمديح ولا أجزع لمذمة... أن الأشجار تزهر في الربيع وتثمر في الصيف ولا مطمع لها في الثناء. وتنثر أوراقها في الخريف وتتعرى في الشتاء ولا تخشى الملامة» (جبران، ٢٠٠٠: ٧٢).

يقول جبران عن لسان فارس كرامة: «إن القلب بعواطفه المتشعبة يماثل الأرزة بأغصانها المتفرقة، فإذا ما فقدت شجرة الأرز غصنا قويا تتألم ولكنها لا تموت بل تحول قواها الحيوية إلى الغصن المجاور» (جبران، ٢٠٠٣: ١٠٤). وهكذا جبران يعلمنا دروس الحياة والحب من خلال الطبيعة، ويعتبرها قدوة للإنسان.

استخدم جبران الأرزة بأغصانها دون غيرها من النباتات، فالأرزة هي من أهم معالم لبنان الطبيعية، ونراها مرسومة على العلم اللبناني كرمز وطني، فعندما يشبهها بالقلب المملوء بالعواطف فهو يشبه لبنان كلها بهذا القلب، قلبا يزخ عواطف على أبنائهألا وهم اللبنانيون. الطبيعة عند جبران ترمز إلى الأم، الأم التي تعطي دون منٍّ وأذى، ولا تريد إزاء عطائها أي شيء، بل وكل أملها إسعاد أبنائها، فكل شيء في الطبيعة «يرمز ويتكلم عن الأمومة، فالشمس هي أم هذه الأرض ... والأرض هي أم للأشجار والأزهار تلدها وترضعها ثم تفطمها، والأشجار والأزهار تصير بدورها أمهات حنونات للأثمار» (جبران، ٢٠٠٣: ١٠٣). وهكذا اعتبر جبران طبيعة لبنان أمه، والأرزة هي قلبها الحنون المليء بالمشاعر والأحاسيس.

والطبيعة عند جبران كائن حي وعاقل وحكيم، وهي التي تزرع الحكمة في روح الإنسان، ولا يستطيع الشخص أن يستغني عنها فلذا عندما يخطابها يقول: «أيها الكون العاقل... أنت تسمعني... وإنك تراني... ألق في روحي بذرة من بذور حكمتك لتنبت... وتعطي ثمرا من أثمارك» (جبران، ٢٠٠٠: ٤٥).

وربما أفضل تعبير لدور الطبيعة في أدب جبران، ما نقلته بنان أبو عيد عنه، فهو يقول: «يا جبران! ولأنك تخجل من كل ما فيك من ضعف بشري تعكف عليه فتستره بحلة من الكلام الجميل والألوان المبهجة" وبالتأكيد أفضل نموذج للكلام الجميل والألوان المبهجة هي استخداماته للطبيعة، ولكنه يراجع نفسه بهذا الكلام فيكمل قائلا: "والكلام الجميل لا يرفع البشاعة إلى مستوى الجمال، والألوان البهجة لا تصبغ الضعف قوة» (ابو عيد، ٢٠٠٥: ١٠-١١).

لم يقتصر دور الطبيعة عند جبران، على المذكور أعلاه بل تتمتع بعض عناصرها بصورة رمزية جميلة فريدة. فمثلا عنوان "المواكب" لإحدى أشهر مؤلفات جبران ما هو إلا رمز للجموع البشرية التي تسير نحو هدفها الذي خطط لها. السير نحو اللانهاية أو "الغاب" الذي يذكره جبران في المواكبويركز عليه، هو رمز الحياة الطبيعية الأصيلة، تلك الحياة المتحررة من قيود المجتمع بحسب رأي جبران. أو "الناي" في القصيدة ذاتها، تلك الآلة البسيطة التي يعزف عليها الرعاة في قرى الشرق، استخدمها جبران لترمز إلى الوحدة التامة، وهكذا تكون جسرا نحو الخلود والكمال والحقيقة (جبران، ١٩٩٤: ١٨-١٩).

إحدى الأدوار التي لعبتها الطبيعة في أدب جبران ـ نثرا وشعرا ـ هي الدور الذي كانت تلعبه الأطلال في الشعر الجاهلي. فمن خلال الطبيعة حن جبران لوطنه حنينا صادقا وعبر عن مشاعره وعواطفه تجاه الوطن. فتلك النفس الرقيقة التي ذاقت مرارة الغربة وذلك القلب الذي كسره الشقاء والهوان، يحتاج إلى ذلك الحنين (السراج، ١٩٨٩: ١٧٦).

تنوع العناصر الطبيعية السلبية والإيجابية في أدب جبران:

تنوعت العناصر المذكورة في أدب جبران حسب حاجته لبيان الموضوع، وهي رغم انتمائها إلى المصدر نفسه ـ أي الطبيعة ـ تتكون من عناصر سلبية وأخرى إيجابية، واختلفت أحيانا معانيها ومفادها بحسب الزمان والمكان والحدث، فلنفس العنصر أحيانا معاني متضادة.

ذكر جبران، المستنقعات والبساتين المزهرة والجبال والوديان والأشجار وغيرها من العناصر في مختلف كتاباته ومؤلفاته، وفي بعض الأحيان جمع بين المعنى الإيجابي والسلبي في جملة واحدة، ليبين قبح أحدهما وجمال الثاني أكثر وأكثر، كما ونقرأ في الأجنحة المتكسرة: «تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة سائرة نحو البساتين المزهرة» (جبران، ٢٠٠٣: ٢٧)، وهكذا شبّه الإنسان بنحلة عليها أن تمر عبر الصعاب للوصول إلى الغاية السامية والهدف النبيل.

وظف جبران هذه العناصر حسب رغبته ولكنه أعطاها مكانة لما كان يكتمل بيت الميكانو بغير هذا الترتيب الذي أراده جبران. فعند ما يصف روح الصبي الواقفة أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكآبة والصعوبات والأزمات ويقول بأنها «زنبقة بيضاء عند خروجها من الكمام ترتعش أمام النسيم وتفتح قلبها لأشعة الفجر وتضم أوراقها بمرور أخيلة المساء» (جبران، ٢٠٠٣: ٢٩)، يحس القارئ بقرب المعنى الذي أراده جبران أكثر من أي تشبيه آخر.

كما وإنه عندما يشبه المفاسد عند الإنسان بتقلب العقارب والأفاعي على جانب الكهوف (جبران، ٢٠٠٣: ٣٧). فحينها يحس الإنسان بمدى مساوئ ومخاطر هذه المفاسد على حياته، ويفكر جاهدا بالابتعاد عنها قدر المستطاع للوصول إلى حياة أفضل بعيدة عن هذه العقارب والأفاعي.

تشبيهات متنوعة لعناصر الطبيعة

يتمتع جبران بخيال واسع ويصنع بخياله عالما فريدا يشد القارئ نحوه، خيالا يصعب على الإنسان أحيانا أن يتوصل إليه لو لم يكن له ذوق إبداعي عظيم، ولكن لم تكن هذه التوصيفات والتشبيهات دائما بعيدة عن العقل البشري، فنجدها أحيانا قريبة إلى أنفسنا جدا. فمثلا بمجرد أن نقرأ عنده بأن «أزهار الأودية أطفال يلدها انعطاف الشمس وشغف الطبيعة» (جبران، ٢٠٠٣: ١٣٣)، فحتى لو لم يفسر لنا في السطور التي تلت هذه الجملة مقاصده، فأننا ندرك أنه يقصد من أزهار الوادي أطفالنا وأبناءنا، ويقصد من انعطاف الشمس وشغف الطبيعة، الحب والحنان البشري الذي من أهم ميزات الإنسان السليم.

وإضافة لما ذكرناه من تشبيهات دقيقة تحوي على المعاني الدقيقة والمعقدة أحيانا، نجد تشبيهات بسيطة لا تصعب فهما ولا تحتاج إلى تأويل أو تفسير، كتشبيه الشعر الأبيض بالثلج فيقول: «حدق إلي الشيخ هنيهة لامسا بأطراف أصابعه جهته العالية المكللة بشعر أبيض كالثلج» (جبران، ٢٠٠٣: ٣٤)، وفي مكان آخر شبه الزهور بأنواع من الأحجار الكريمة قائلا: «أزهار نيسان مبتسمة بثغور حمراء كالياقوت وزرقاء كالزمرد وصفراء كالذهب» (جبران، ٢٠٠٣: ٣٩)، وفي وصف بديع يشبه الدمع بقطرات الندى فيقول: «ترقرقت الدموع في عينيها مثلما تلمع قطرات الندى على أطراف أوراق النرجس» (جبران، ٢٠٠٣: ٦١). ونلاحظ العشرات من هذه النماذج الجميلة والتي تجلبنا إليها صفاء ذكرها ورقّة استخدامها.

لم تنحصر الطبيعة عند جبران بالمرئيات فقط، بل واستخدم أصوات الطبيعة أيضا كتغريدة البلبل وهدير الحمام وخرير المياه، وبعض هذه الأصوات كانت من نسيج خيال الفنان، كهمس الوردة وتنهيدة الغدير (جبران، ٢٠٠٣: ٤٩).

إن العناصر المذكورة تتمتع بجمال فائق واستخدمهاجبران استخداما راقيا، ولكنها أحيانا تجاوزت الواقع الاجتماعي الموجود بل وتحدّت التاريخ والأديان والمذاهب حيث يدخل جبران في بعض تشابيهه في متاهات لم يخرج منها القارئ لو لم يكن له وعي ومعلومات كاملة، فنجده أحيانا يشبه الشرائع والتقاليد بكهف ويقول: «أوقفتني متأملا تجاه هذا العالم... وكهوف شرائعهم وتقاليدهم» (جبران، ٢٠٠٣: ٣٠)، ونحن نعرف أن من أشهر مواصفات الكهف هي أن يكون مغلقا ومظلما ومخوفا، ويربط هذا الكهف في مكان آخر بالتخلف والموت والفناء فيقول: «إن الشجرة التي تنبت في الكهف لا تعطي ثمرا» (جبران، ٢٠٠٣: ١٣٣)، فعلينا أن ننتبه بأن الشرائع السماوية لن تتسم بهذه الصفات، حتى ولو استغلها بعض الذين ينتمون إليها في الظاهر ويبعدون عنها كل البعد في القلب والمشاعر. فعلينا أن لا ننسى قدسية هذه الشرائع ودورها الإيجابي في حياتنا.

قصيدة المواكب:

من أجمل ما كتب جبران وأول ما نشر من مؤلفاته الشعريةهي قصيدة المواكب والتي هي بحد ذاتها ديوان كامل، وكانت قصيدة جديدة في موضوعها وأسلوبها، فالشعر العربي لم يعرف قصيدة تأملية في مثل طولها. أبيات المواكب ٢٠٣ أبيات، وتناولت موضوعات عدة، منها: الخير والشر، الدين، العدل، الحرية، الحب، الموت والجسد (جبران، ١٩٩٤: ٧).

وهذه القصيدة عبارة عن حوار بين صوتين، يعبر أحدها عن الواقع الذي هو موجود في مجتمعنا والذي يتكون من ثنائيات تفرق مثلابين القوة والضعف، وبين الحزن والفرح، أما الصوت الثاني فيصف الفلسفة الوحدوية التي يزول فيها الفوارق وتنسجم المتناقضات ويرمز اليها بالغاب (جبران، ١٩٩٤: ٧). وينقد جبران من خلال المواكب بعض الاجتماعيات ويستعين فيها بعناصر من الطبيعة، ليصل إلى الهدف النهائي من هذا الحوار.

يصف جبران الغاب حيث تزول فيها الفوارق وتنسجم المتناقضات بحسب رأيه، فجبران الذي تأثر بفلسفة "نيتشه" و"وليم بليك" تعب وسئم من هذا العالم وما ظهرعنه من ضلال وفساد، واشتاق إلى عالم السعادة والكمال، عالم رمز إليه بالغاب وصوت الناي (جبران، ١٩٩٤: ٨).

اتخذ جبران صوت الناي الذي لا يدخل في صنعه وعزفه أي عنصر صناعي وخارج الطبيعة البحتة، فهو مصنوع من القصب، والعزف عليه يتم بالنفخ فيه. صوت الناي الحزين وموسيقاه تعود بالإنسان إلى حياة أكثر صفاء ورقة، وذكر الناي كثير من الشعراء والأدباء، ليس من العرب فحسب بل وحتى من شعراء سائر اللغات فيقول الشاعر الفارسي، مولوي:

بشنو از نـي چون حكايـت مي‌كنـد — از جـدائي‌هـا شـكايت مـي‌كنـد
كـز نيسـتان تـا مـرا ببريـده‌انـد — از نفيـرم مـرد وزن ناليـده‌انـد
سينه خـواهم شـرحه شـرحه از فـراق — تـا بگـويم شـرح درد اشـتياق

(مولوي، ١٣٦٢: ١)

أي اسمع صوت الناي عندما يسرد لنا الحكايات، ويشكي من ألم الفراق قائلا: عندما قطعوني من مزرعة القصب قد بكى رجال ونساء من أنيني، فأنا أحتاج إلى صدر متمزق من ألم الفراق كي أروي له ألم الشوق.

فالناي يحكي عن صوت الفطرة، وصوت ضمير الإنسان. يقال بأن الكمال كائن في صوت الناي، فهي الجسم والروح معا، وإنها تحتوي كل المظاهر الإيجابية من علو وعزيمة وعلم ومحبة (عباس، ١٩٥٧: ٤٨)، والغاب من منظار جبران هو العالم المثالي الذي يحقق السعادة الكاملة.

إن كثرة التفكير بالخلود ـ إثر ما ذكرناه لتأثره بالأفكار الفلسفية ـ إضافة إلى الصدمة التي واجهها من الحياة المادية الفاسدة، دعت جبران لمحاولة الابتعاد عن هذه الحياة قدر المستطاع (السراج، ١٩٨٩: ١٣٠). فلذا نجد البساطة حتى في حياته الواقعية ـ بعيدا عن الأدب والفن ـ أي في مأكله ومشربه وملبسه، فكان يؤثر البساطة في عيشه (الهواري، ٢٠٠٩: ٨٣). كانت نتيجة هذا الابتعاد عن المادة والعالم المادي، هو السير نحو الطبيعة والغاب وغيرها من هذه العناصر (السراج، ١٩٨٩: ١٣٠). ولذلك يطلب في آخر المواكب أن نعود إلى هذه الطبيعة الطاهرة لنعيش في رفاه وسلام وبساطة وحرية دون إيذاء من أي جهة أو شخص، حياة يصفها بأجمل وأرق الصور:

أعطـني النـاي وغـنّ — فالغنـا سـر الخلـود
وأنـين النـاي يبقـى — بعـد أن يفـنى الوجـود
هـل تخـذت الغـاب مثلـي — مـنزلا دون القصـور
فتـتبعـت السـواقـي — وتسـلقت الصـخور؟
هـل جلسـت العصـر مثلـي — بـين جفنـات العنـب
والعناقيـد تـدلت — كثريـات الـذهب؟
هـل فرشـت العشـب لـيلا — وتلحفـت الفضـا
زاهـدا فـي مـا سيـأتي — ناسيـا مـا قـد مضـى؟

(جبران، ١٩٩٤: ٣٨-٣٩)

فجبران في هذه الأبيات يدعو إلى حياة الغاب ويصفها بأجمل الصور التي تتمثل في تتبع السواقي وتسلق الصخور والجلوس بين أشجار العنب وغيرها من الصور الجميلة والخلابة، ويعتبرها أفضل من العيش في القصور، ويرى بأن ساكن الغاب لا يرى سوى يومه فإنه ينسى ما مضى عليه ولا يهتم بما سيجري في المستقبل فلذا يختار البساطة في حياته وتتمثل هذه البساطة في أبسط الأمور أي النوم حيث لا ينام على فراش أو مرتبة بل يختار العشب النابت في الغاب ولأنه ليس له ما يغطي به نفسه من بطانية أو لحاف يختار الفضاء والهواء كي تغطيه وتحميه من البرد وما شابه ذلك.

ولكن بعد كل هذه الأبيات والدعوة نحو الحياة في الطبيعة وبالتحديد في الغابة التي هي الطبيعة البحتة دون تدخل بشري، يعترف جبران بعجزه أو بالأحرى بعجز الإنسان عن تحقيق حياة الغاب، فيتضح شعور جبران ببعد المسافة بين الواقع والمثال، ويأسه من تحويل هذا المثال إلى الواقع. فلذا يستسلم جبران في نهاية المطاف للقدر إذ لاسبيل إلى تغيير أحكام الدهر. أراد جبران أن يحطم ثنائية المجتمع الإنساني بتحقيق حياة الغاب، وإذا به ينتهي إلى تحطيم الغاب (جبران، ١٩٩٤: ١٣). وكأنما يؤمن بأن الإنسان مسيّر لا مخير، ويعتقد بوجوب بقائه في هذه الحياة، لأنها تدعوه للمشاركة فيها لكي يؤدي رسالته التي قُدّرت له (السراج، ١٩٨٩: ١٥٢).

العيش في الغاب، والأيام لو نظمت ... في قبضتي، لغدت في الغاب تنتشر
لكن هو الدهر، في نفسي له أرب ... فكلما رمت غابا قام يعتذر
وللتقدير سبل لا تغيرها ... والناس في عجزهم عن قصدهم قصروا

(جبران، ١٩٩٤: ٤٠)

فيؤكد جبران في البيت الأول بأن الأمر لو كان بيده لقضى كل أيامه في الغاب، لكنه يعترف في البيت الثاني بأن للدهر مآرب وغايات خاصة، فلذا كلما يقصد جبران غابا، يعتذر الغاب من قبول إقامته، ويوضح المعنى أكثر في البيت الثالث حيث يؤكد بأن القدر ثابت ولا مجال فيه للتغيير ومهما حاول الناس أن يقصدوا أمرا غير مقدر لهم يعجزون في تنفيذ ذلك الأمر.

وهكذا اصطدمت آمال جبران العظيمة وخياله العميق وأفكاره الفريدة، بالواقع الذي لا يمكن الفرار منه، فنحن لا ننكر أن الواقع والحياة مليآن بالإيجابيات ولكننا نعرف جيدا بأن هناك مساوئ فيهما أيضا ونعلم أن العقائد الجبرانية ـ إن صح التعبير ـ لا تتفق مع الكثير من زوايا واقع الحياة، لكن جبران اضطر إلى أن يركع أمام هذا الواقع المخالف لأفكاره

والحاوي على المساوئ. فجبران لم يستطع أن يبتعد عن الناس والحياة التي طالما حث الآخرين على الابتعاد عنها، بل نجده قد اندمج فيها وكأنه كان مضطرا على أن يسايرها بحيث لم يستطع أن يخرج منها (السراج، ١٩٨٩: ١٥٤).

وكانت الطبيعة ملهمة لجبران بأفكاره الفلسفية التي عرضها وعددها في مؤلفاته وحاول أن يصل بحب الطبيعة ووصفها إلى أعلى المستويات، واستحوذت الطبيعة على القسط الأكبر من كتاباته. فالأجنحة المتكسرة مثلا، تدور أحداثها في تاريخ قديم بعيد عن التقنيات والمادة، ولايكاد يوجد فيها مقطع لم يذكر جبران الطبيعة فيه، بل وهناك مقاطع كاملة وصفحات بأكملها لا تتحدث إلا عن الطبيعة، وأي طبيعة؟ الطبيعة المجردة البعيدة عن المادة بشكل كامل.

وهذا التفكير وهذه الآمال لم تكن مختصة بجبران فقط، بل نلاحظ سائر أعضاء الرابطة القلمية أيضا كانوا يحملون الفكر نفسه، ونقرأ شبيها لهذا عند ميخائيل نعيمة، في قصيدة "صدى الأجراس"، حينما يتخيل الغاب بأشجاره وطيوره وأزهاره، كلها تصافحهم وتهنئهم بسلامة الوصول، وكذلك نسيب عريضة في "طريق إرم"، وإيليا أبو ماضي عندما نقرأ قصيدته "في القفز"، نجد فيها مضامين تشبه ما ذكرناها في "المواكب" وكل هؤلاء يعنون بنفس ما عناه جبران بكلمة الغاب (السراج، ١٩٨٩: ١٥١-١٥٢).

التناقض في استخدام عناصر الطبيعة:

في وصف جبران لعناصر الطبيعة باختلاف الأزمنة والأحداث والحالات نجد أحيانا تناقضا واضحا. ولكن هذا التناقض لا يعتبر خللا في أدب جبران، بل هو المقصود بالتأكيد.

يعتبر جبران هذه العناصر كملامح وجه الإنسان التي تتغير بتغير أفكاره وعواطفه، فيقول في الأجنحة المتكسرة مثلا: «شجرة الحور التي تتعالى في النهار كعروس جميلة يلاعب النسيم أثوابها تظهر في المساء كعمود دخان يتصاعد نحو اللاشيء، والصخر الكبير الذي يجلس عند الظهيرة كجبار قوي يهزأ بعاديات الزمن يبدو في الليل كفقير بائس يفترش الثرى ويتلحف الفضاء، والساقية التي نراها عند الصباح متلمعة كذوب اللجين ونسمعها مترنمة بأغنية الخلود نخالها في المساء مجرى دموع يتفجر من بين أضلع الوادي ونسمعها تندب وتنوح كالثكلى» (جبران، ٢٠٠٣: ٨٨). فنجد تناقض الوصف بين الشجرة التي تزين حياة الإنسان في الصباح والشجرة المخيفة العابثة التي تشبه عمود الدخان في المساء، وكذلك بين قوة الصخر وجبروته وبين فقره وبأسه، وما يخص الساقية جمالا وأحاسيس مفرحة في الصباح، وكآبة وحزنا في المساء.

وفي مكان آخر عندما يصف حزن بطل الأجنحة المتكسرة بعد أن انقطعت حبال آماله بوصل سلمى كرامه، يذكر كل العناصر التي كانت تدل على الجمال من بداية القصة ولحد هذه اللحظة، يذكرها بأسوأ الحالات. فيكتب جبران واصفا شعوره النفسي: «سرت وأخيلة الأشجار القائمة على جانبي الطريق تتحرك أمامي كأنها أشباح قد انبثقت من شقوق الأرض لتخيفني، وأشعة القمر الضعيفة ترتعش بين الغصون كأنها سهام دقيقة تريشها أرواح الجان السابحة بالفضاء نحو صدري، والسكينة العميقة تخيم على كأنها أكف سوداء ثقيلة ألقتها الظلمة على جسدي» (جبران، ٢٠٠٣: ٨٩). فنلاحظ كيف يصف جبران الأشجار بأنها أشباح مخيفة، وهو الذي قد وصف هذه الأشجار بأنها حاضنة للحب عندما كان يصف حالته مع حبيبته تحت أشعة القمر فقال: «تغمرنا أشعة القمر وتحيط بنا الأشجار والرياحين» (جبران، ٢٠٠٣: ٦٣).

وبعيدا عن الأشجار والسواقي فلا يوجد أديب قد ذكر نور القمر بوصف غير وصف الغزل والعشق ـ حتى جبران ـ ولكنه الآن يصفه كسهام تتجه نحو صدره لتقتله، فبهذه التوصيفات والتشبيهات ذهب جبران بخياله إلى عالم يختلف عن عالمنا الذي نعرفه وتعودنا عليه، وأخذ معه كل من يقرأ أدبه ليستمتع حتى بروح الكآبة الموجودة في هذه المقاطع. وبالتأكيد هذا الموضوع إن دل على شيء، فإنما يدل على خيال واسع لدى جبران، فكيف استطاع أن يصل بعقله إلى هذا المستوى من الخيال اللامتناهي!؟

وبعض هذه التناقضات في استخدامه لعناصر الطبيعة لم تكن في ما كتبه هو، بل هناك تناقضا بين وصفه وبين ما اشتهر عن ذلك العنصر، فنأخذ الليل كمثال، الليل الذي طالما ذُكر كعنصر كئيب مليء بالحزن والهم كما يذكره امرؤ القيس في معلقته حيث يصف الليل قائلا:

وليل كموج البحر أرخى سدوله ... علي بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه ... وأردف أعجازا ونآء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ... بصبح وما الإصباح منك بأمثل

(الكندي: ٢٠٠٠: ٢٤٠)

ولكن جبران يحب الليل ويراه مثيرا لذكرياته فالليل بكل العناصر التي يحملها كالنجوم والضباب، خير حاجب لأسراره فهو كاتم للأسرار ولا يذيع سرا أبدا:

سكن الليل، وفي ثوب السكون ... تختبي الأحلام
لا تخافي، يا فتاتي، فالنجوم ... تكتم الأخبار

وضبـــاب الليـــل في تلــك الكــروم يحجــــــــــب الأســــــــــرار

(جبران، ٢٠٠٠: ٢١١)

فيشبه جبران سكون الليل بثوب يختبئ تحته ما يحلم به الإنسان كي لا يكتشف الغرباء تلك الأحلام، ويُطمئن الحبيب كي لا يخاف من إفشاء السرلأن نجوم الليل هي الشاهد الوحيد على خبرهما ومن المستحيل أن لا تكتم ما شاهدت، أما الضباب الذي يقترب من الأرض ليلا في ذلك البستان فلا يعرف شيئا سوى حجب الأسرار.

تناقضات لا تغفل:

ذكرنا بأن جبران يرى دائما أن الطبيعة هي الأساس في كل شيء، وعلى الإنسان أن يتعلم منها جميع دروس الحياة، وبالتأكيد الحب هو من أهم عناصر الحياة الإنسانية، ولكننا نقرأ في مقالته "وعظتني نفسي" عندما يتكلم عن أسرار الحب يبحث فيه عن شيء لا ينتمي إلى الطبيعة، فيقول: «علمتني استنشاق ما لا تبثه الرياحين... الآن... أملأ صدري من أنفاس زكية لم تمر بجنة من جنات هذا العالم ولم تحملها نسمة من نسمات الفضاء» (جبران، ٢٠٠٠: ٧٠). إذن أين ذهب ذلك التأسي بالطبيعة، هل مات مع أفكاره التي ماتت قبل أن تعظه نفسه؟

يحث جبران الإنسان الذي يريد الوصول للكمال، إلى اتباع الطبيعة، وكأنها قدوته: «يسير الإنسان نحو الكمال عندما يشعر بأنه هو الفضاء ولا حد له، وهو البحر بدون شواطئ، وأنه النار المتأججة دائما، والنور الساطع أبدا» (جبران، ٢٠٠٠: ٨٨). ولكنه يعتبر في الطبيعة وجود نواقص أيضا، لذا يضع لكل عنصر من عناصر الطبيعة صفة لا تتحقق في ذلك العنصر، فالوصول إلى الكمال يحتاج إلى شيء أعظم من صفات الطبيعة، فلا يوجد في الطبيعة بحر بلا شواطئ، ولم نشاهد نارا لا تنطفئ، والنور الساطع أبدا هو الله.

ربما تناقضات جبران في أدبه ناشئة من بعض ما نجده في حياته الإجتماعية فحنا الفاخوري عندما ينقد شخصية جبران يقول: «أنشودة جبران كانت الحب الإنساني المادي ـ كما ذكر مارون عبود ـ وحب اللحم والعظم هو القطب الجبراني وعليه تدور رحاه الطاحنة، فاصطدمت شهوته ونزعاته المادية، بالآداب العامة فثار فيه ثأر السخط وأراد التحرير، وامتزج حبه لذاته بحبه لبلده» (الفاخوري، ١٤٣٣: ١٠٩٥)، فهكذا يريد الفاخوري أن يصل إلى أنّ جبران لم يكن مستقرا من الناحية النفسية، لأن حب الوطن غالبا ما يبعد الناس عن حب ذاتهم لذا نراهم يضحّون بالغالي والنفيس من أجله، وهكذا من يريد أن يتمسك

بالآداب العامة عليه أن يتخلى عن كثير من شهواته، ولكن الفاخوري يؤكد على أن هنالك مشاكل واجهها جبران مما أدت إلى صدامات.

والطبيعة عند جبران تكون أحيانا العودة لذكريات الماضي عندما يحن لتلك الأيام الجميلة التي عاشها جبران في طفولته فبعد ما يصف جمال الطبيعة اللبنانية يقول: «لبناني فتذكارات تعيد على مسمعي أهازيج الفتيات في الليالي المقمرة وأغاني الصبايا بين البيادر والمعاصر» (جبران، ٢٠٠٠: ٧٥)، ولكنه من جانب آخر يدعو الإنسان إلى نسيان الماضي والعيش في الحاضر فيمدح الأرض في "أيتها الأرض" ويخاطبها بعد ذلك المدح الجميل قائلا: «... تحاربين ماضيك بحاضرك، وتصرعين قديمك بجديدك... علمت أن نظام البشر نظامك... من لا يكفن بنسيان ما مات من ماضيه كان كفنا لمآتي الماضي» (جبران، ٢٠٠٠: ٩٧).

اعتبر جبران الطبيعة كائنا حيا وعاقلا، واعتبرها ملهمة لدروس الحياة ومعلمة تزرع بذور الحكمة في الإنسان، كما وهي الملاذ الآمن لكل من يشكو من الظلم والجور ـ كما ذكرنا سابقا ـ ولكن عندما تأتي قوانين الطبيعة ضد رغبات جبران المادية ينسى كل ما قاله بشأنها وينسى بأنها أمه وهي المربية الفاضلة التي عليه أن يتعلم منها كل شيء فيأتي لينكر سلطة الوالدين على الأبناء وينبذ شريعة الزواج (أبو عيد، ٢٠٠٥: ٧)، فيكتب ميخائيل نعيمة بأن جبران كان يدعو بعض الفتيات إلى مساكنته بعيدا عن الشرائع والعادات والتقاليد والأخلاق (الهواري، ٢٠٠٩: ٧٢). إذن كان جبران ينتقد كثيرا من الأمور التي تتماشى مع الطبيعة الإنسانية وفطرته، بل ونجدها أحيانا في فطرة الحيوانات أيضا. وهذا الموضوع يثير تساؤلا مهما، وهو إذا كان جبران يميل الى الطبيعة ويحبها حبا جما، فلماذا يبعد عنها حينما تتعارض مع أفكاره الخاصة؟

يبالغ جبران في وصفه للطبيعة أحيانا ويجعلها أفضل وأرقى من البشر، فيقارن ما بينهما أحيانا ليصل إلى هذه النتيجة، فيقول: «نحن نتناول عناصرك لنصنع منك المدافع والقذائف وأنت تتناولين عناصرنا وتكونين منها الورد والزنابق» (جبران، ٢٠٠٠: ٩٨)، ولكنه لن يلبث كثيرا حتى يتراجع عما قاله ويجعل نفسه ـ أي البشر ـ أهم من الأرض فيقول: «أنت أنا أيتها الأرض، فلو لم أكن لما كنت» (جبران، ٢٠٠٠: ٩٩)، فيجعل نفسه الأساس لتكون الأرض وما تمثلها من طبيعة خصبة، مجرد ممثلة عن هذا الوجود، أي وجود البشرية.

كل ما قلناه ولم نقله من تناقضات في معاملة جبران مع الطبيعة ربمايعد خير دليل على أن الطبيعة رغم أهميتها وجمالها واستخداماتها المتنوعة، لم تكن سوى وسيلة لنقل أفكاره للمتلقي، ولم تكن هدفا أساسيا في أدب جبران مطلقا.

النتائج

- نشأة جبران في بلدة بشري ـ التي كانت تتمتع بطبيعة خلابة وجميلة ـ كان من الأسباب التي ساعدته على استخدام عناصر الطبيعة بشكل جيد، ليستطيع المتلقي أن يفهمها دون تعقيد.
- الأفكار الفلسفية التي أخذها من بعض الفلاسفة الغربيين ومن الخطابات السائدة في أمريكا آنذك، دعته للتمرد على الحياة المادية وبالتالي التوجه نحو الطبيعة.
- كانت الطبيعة عند جبران ترمز إلى أمور كثيرة منها الأم، فهي التي تعطي دون مقابل بلا من أو أذى.
- استخدم جبران عناصر الطبيعة لأسباب عدة منها: شد المتلقي إلى نصوصه عبر جمالية المكان، وأمانيه إلى العيش في حياة بسيطة بعيدة عن تعقيدات المادة والآلة والضجيج الناتج عنها.
- من أسباب عدم العودة إلى الطبيعة طوال عمره، هي عقيدته التي تدعوه إلى البقاء في حياته الجديدة لإكمال رسالته التي كتبها له القدر.
- بما أن أعضاء الرابطة القلمية كانوا يمرون بظروف متشابهة، وكان لجبران أثر عليهم بحكم مكانته وأدبه، فنلاحظ أكثرهم كانوا يتناولون الموضوعات ـ بما فيها الطبيعة ـ من نفس الرؤية، والتأثيرات الفلسلفية واستخدام الغاب خير دليل على ذلك.
- هناك بعض التناقضات في نظرة جبران إزاء الطبيعة حيث يعارض أحيانا ما يعلنه تجاه الطبيعة وقوانينها.

المصادر والمراجع

١. أبو عيد، بنان محمود (٢٠٠٥م). جبران خليل جبران. عمان، الأردن: دار الإسراء.

٢. الأمارة، أسعد (٢٠٠٧م). الالتزام الديني بين التسامي في السلوك وعودة المكبوت. مجلة النبأ المعلوماتية، تموز.

٣. جبران، جبران خليل (٢٠٠٣م). الأجنحة المتكسرة، مقدمة نازك سابا يارد. بيروت: دار نوفل.

٤. جبران، جبران خليل (٢٠٠٠م). البدائع والطرائف. ط٣، بيروت: دار نوفل.

٥. جبران، جبران خليل (١٩٩٤م). المواكب. بيروت: دار نوفل.

٦. السراج، نادرة (١٩٨٩م). شعراء الرابطة القلمية. القاهرة: دار المعارف.

٧. عباس، إحسان ومحمد نجم (١٩٥٧م). الشعر العربي في المهجر. بيروت: دار صادر.

٨. الفاخوري، حنا (١٤٣٣ق). تاريخ الأدب العربي. قم: انتشارات ذوي القربى.

٩. الكندي، امرؤ القيس (٢٠٠٠م). الديوان. ج١، العين: مركز زايد للتراث والتاريخ.

١٠. المتنبي، أبو الطيب (١٩٨٣م). الديوان. بيروت: دار بيروت.

١١. الهواري، صلاح الدين (٢٠٠٩م). شعراء المهجر الشمالي. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

١٢. جبران، جبران خليل (١٣٧٩هـ). شعله كبود. تقديم مهين دخت معتمدي، طهران: نشر باغ نو.

١٣. مولوي، جلال الدين (١٣٦٢هـ). مثنوي معنوي. طهران: نشر أمير كبير.